

الكامل في التاريخ لابن الأثير (ت. ١٤٣٠ هـ / ١٢٣٢ م)

مصدراً لدراسة خطط الموصل

في العصر الاتابكي (٥٢١-١١٢٧ هـ / ١٢٦١-١١٢٧ م)

أ. م. د. ميسون ذنون العباجي

مقدمة

يتناول البحث دراسة خطط الموصل في العصر الاتابكي والتي ورد ذكرها في كتاب "الكامل في التاريخ" لابن الأثير، وتأتي أهمية البحث كونه قد عاش معظم حياته في الموصل، وهو أيضاً معاصر لعدد من حكام الدولة الاتابكية في الموصل (٥٢١-١١٤٩ هـ / ١٢٢٢-١١٤٩ م)، إذ عاصر ثلاثة منهم، وبالتالي فهو شاهد عيان على إحداث عصره، إذ يعد كتابه التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية، والكامل في التاريخ، من المصادر التاريخية المهمة التي تناولت بالتفصيل تاريخ الدولة الاتابكية في الموصل، وعلى الرغم من تركيزه على الناحية السياسية في الكتابين، إلا أنها نجد في ثياتها العديد من المعلومات الخاصة بخطط مدينة الموصل لا تذكرها مصادر تاريخية أخرى معاصرة له، إذ أنه المؤرخ الوحيد الذي أرخ لهذه الدولة، فضلاً عن ذلك فإن مدينة الموصل تتميز بظاهرتين حضاريتين ذلك أنها قديمة وحديثة في الوقت ذاته، فقديمة وتعني بها مدينة نينوى التي كانت عاصمة للاشوريين، وكان يطلق عليها الحصن الشرقي، والموصل وهي المدينة التي استحدثت بعد الفتح الإسلامي لها (١٦ أو ١٧ هـ / ٦٣٧ أو ٦٣٨ م)، وكان يطلق عليها الحصن الغربي، وعندما فتحها العرب المسلمين في العصر الراشدي تم بناء دار الإمارة، والمسجد الجامع، وخطت الدور السكنية، وفي عهد الخليفة الراشدي عثمان بن عفان أسكن الموصل (٤٠٠٠) من قبائل الازد وطئ وغيرها من القبائل، وأصبحت بذلك مأهولة بالسكان، وبعد مجئ الأمويين شهدت الموصل حركة عمرانية كبيرة، حيث أنشئ الجامع الأموي (الجامع العتيق)، وتوسعت الأسواق، وحفر فيها نهر لإيصال الماء لأهلها، وكهذا استمرت بالتطور العمراني على الرغم من أنها مرت بفترات صعبة أدت إلى تراجعها عمرانياً، وبخاصة بعد تأسيس الإمارة العقيلية (٣٨١-٩٤٨٩ هـ / ٩٩١-١٠٩٥ م) في الموصل، ومن ثم السلجوقية (٤٨٩-٥٥٢١ هـ / ١٠٩٥-١١٢٧ م) وقد شهدت مدينة الموصل تطوراً عمرانياً واضحاً بعد قيام الدولة الاتابكية في الموصل، وهناك نص غایة في الأهمية يتحدث عن هذا التطور أورده ابن الأثير نقاً عن والده الذي عاصر أوائل حكام هذه الدولة بالقول: "حکی لی والدی قال: رأیت الموصل

التي هي أم البلاد في أول أيام الشهيد وأكثرها خراب، فكان الخراب من محله للطلابين إلى القلعة وإلى دور السلطة، وكانت العرصة ثرى من قريب مسجد التركمانى، وهو قريب من الطلابين، وكان الجامع العتيق أيضا بلا عماره البتة....^(١). فهذا النص يعد من أهم النصوص التاريخية الذي يعكس حالة مدينة الموصل العمرانية قبل مجئ الدولة الاتابكية، وما تجدر الإشارة إليه أن البحث سوف يقتصر على ما ذكره ابن الأثير من معلومات خاصة بخطط الموصل فقط، على الرغم من وجود بعض النص في تلك الخطط كالأسوق مثلا والتي لا يأتي على ذكرها، ولا يوجد تفصيلات عند ذكره لخططة ما، لذا فعند تناولنا لأي معلم عمراني أو خططة لابد من الرجوع إلى بدايات التأسيس الأولى وعلى هذا الأساس فسنستعين بالمصادر التاريخية الأخرى لإعطاء صورة أولية أكثر وضوحاً لهذه الخطط. وكانت مصادر معلوماته الخاصة بتلك الخطط تتركز على مشاهداته فقط، خاصة إذا ما علمنا أن ابن الأثير كان اعتماده على المصادر المكتوبة قليلاً جداً في هذه المدة، وهذا ما نراه واضح، لأن معظم معلوماته عن الدولة الاتابكية كانت شفوية، وعند الرجوع إلى كتابه الآخر الباهر سنرى أن معظم معلومات الكتاب هي شفوية نقلها عن والده وهذا ما صرحت به في مقدمة الكتاب، ومن ثم أورد المعلومات ذاتها في كتابه الكامل ووفق المعلومات الخاصة بخطط الموصل والتي وردت في كتاب الكامل يمكن تقسيمها حسب المواضيع الآتية:

أولاً: الأنهار:-

فالنهر الوحيد الذي جاء ذكره في الكامل هو نهر الحر والذي تم حفره في زمن الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (٦٨٥ هـ - ٩٦ هـ)، وبالتحديد عندما كان الحر بن يوسف الثقفي واليا على الموصل سنة (٩١٠ هـ / م ٧٢٤) ولذلك سمي النهر باسمه، وكان مصدر ابن الأثير في معلومات هذا النهر هو كتاب "تاريخ الموصل" لأبي زكريا الأزدي (ت ٥٣٤ هـ / م ٤٩٥) إذ أعطى الأخير معلومات وافية عن مراحل حفر النهر، فذكر الأزدي أن سبب هذا الحفر هو أن الحر رأى امرأة تحمل جرة ، وهي تحملها قليلاً ثم تستريح وذلك بعد نهر دجلة عن المدينة، عندها كتب الحر إلى الخليفة هشام لهذا الأمر، وعلى ضوء ذلك أمر الخليفة بحفر النهر^(٢)، وقد استغرق عمل النهر عدة سنوات، وقد توفي الحر سنة (٩١٣ هـ / م ٧٣١) ولم يكتمل حفر النهر، فجاء بعده الوالي الوليد بن تليد العبسي وواصل العمل فيه وأتمه سنة (٩١٢ هـ / م ٧٢٩)، وبلغت نفقةه حوالي ثمانية آلاف درهم^(٣) بينما ذكر الأزدي كلفته ثمانية آلاف ألف درهم^(٤)، والأصح روایة الأزدي لأنه يبدو من عدد السنين التي حفر فيها النهر بلغت عدة سنوات وهذا مناسب لما ذكره الأزدي. ويمكن أن نتناولها على النحو الآتي:

أولاً: السور:-

وردت إشارات عديدة في المصادر التاريخية عن السور الذي كان يحيط بمدينة الموصل، فكانت الموصل قبل مجئ العرب المسلمين إليها عبارة عن حصين الغربي وهو الموصل الحالية، والشرقي وهو نينوى، وهذا يدل على أن طبيعة نشوءها كان عسكريا هجوميا لا داعيا لذلك لا تشير مصادر التاريخ الإسلامي المبكرة إلى وجود سور للمدينة.

وهناك إشارات عدة تبين أن السور يعود بناؤه إلى عصر الدولة الأموية، فذكر قدامة بن جعفر أن سعيد بن عبد الملك الذي تولى إدارة الموصل في أثناء خلافة أبيه عبد الملك بن مروان هو الذي أحاطها بسور^(٥)، في حين ذكر الأزدي أن محمد بن مروان هو الذي بنى سور الموصل بقوله "محمد بنى سور الموصل سنة ثمانين بلا خلاف بين من يعلم من اهل الموصل"^(٦). وعلى الرغم من اختلاف الروايات حول تاريخ بناء السور، إلا أنها تشير إلى أن هذين الواليين قد أسهما في بناء سور المدينة خلال العصر الأموي، وقد تعرض السور للهدم مرتين في عصر الدولة العباسية، وبخاصة في عهد الخليفة هارون الرشيد (١٢٠-١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٩م) بسبب حركة الخوارج، فالأولى كانت سنة (١٧٧هـ/٧٩٣م)^(٧) والثانية في سنة (١٨٠هـ/٧٩٦م)^(٨)، وهناك إشارة مهمة جدا وردت لدى ابن الأثير وهي أن الموصل بقيت بدون سور ، إذ ذكر ما نصه: "وكان الموصل أولاً بغير سور"^(٩) إلى أن جاء العقيليون فاهمت حكامها ببناء المدينة ومنهم شرف الدولة مسلم بن فريش (٤٥٣-٤٧٨هـ/١٠٦١-١٠٨٥م)، ولكنه لم ي عمل له فصيلاً وخندقاً، وكان قليل الارتفاع^(١٠)، وعند مجئ السلاجقة قام حاكمها جكرمش (٤٩٥-٤٩٥هـ/١١١١-١١٠٦م) بإكمال التواقص التي كانت في سور العقيلي، فبني له فصيلاً وخندقاً ولكنه ليس بالعميق^(١١)، أما الاتابكة فإنهم اهتموا اهتماماً كبيراً بالسور فقال ابن الأثير بقصد ذلك: "فلما ملكها الشهيد [أي عماد الدين بن زنكي] وحصرها المسترشد بالله على ما ذكرناه سنة سبع وعشرين وخمسماة ثم عاد عنها فأتم سورها وخندقها"^(١٢)، فصار للمدينة سوران العقيلي والatabكي، وهناك إشارة في الباهر على درجة من الأهمية وهي أن سور الذي بناء الاتابكيون والخندق بقيا على حالهما ولم يتعرضا للتغيير حتى عصر المؤلف فقال: "فهذا سور وهذا الخندق هما على الحال التي عملت في الأيام الشهيدية"^(١٣). وكان لهذا سور عدة أبواب منها:

(١) باب الجسر: وهو من أبواب الموصل القديمة وسمى بباب الجسر نسبة إلى الجسر الذي تم إنشاؤه في عصر الدولة الأموية وبالتحديد عندما تولى مروان بن محمد إدارة الموصل، وهذا الجسر يربط بين الموصل ونينوى وهو قائم إلى وقتنا الحاضر، وقد ورد ذكره لدى ابن الأثير في أثناء حديثه عن الجامع المجاهدي فقال : " وفيها قرب الجامع الذي بناه مجاهد الدين قايماز بظاهر الموصل من جهة باب الجسر"^(١٤)

(٢) باب المَشْرِعَةُ: وقد ورد ذكره لدى ابن الأثير عند حديثه عن الرباط الذي بناه سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي (١١٥٢-١١٥٥ هـ / ٤٥٤-٤٥٦ م) قائلاً: وبنى رباطاً للصوفية بالموصل على باب المشرعة^(١٥)، ويقع هذا الباب على نهر دجلة، جنوب دور المملكة (قره سراي) التي بناها الاتابكيون، وأثاره باقية إلى الوقت الحاضر وموقعه في باب شط المكاوي^(١٦).

(٣) الباب العمادي: وهو من الأبواب التي تم فتحها في العصر الاتابكي ومؤسسها عماد الدين زنكي والذي نسب إليه، ويؤدي هذا الباب من الميدان إلى ظاهر الميدان (الرحب الأعلى)^(١٧).

(٤) باب سنمار: وهو من الأبواب القديمة في سور الموصل، وقد ورد ذكره لدى الإزدي، وقد جدد الباب في فترات متباينة ومنهم بدر الدين لؤلؤ^(١٨).

(٥) باب كندة: ورد ذكره لدى ابن الأثير في حوادث سنة (١١٨٢ هـ / ٥٧٨ م) أثناء حصار صلاح الدين الأيوببي للموصل فقال: "نزل صلاح الدين محاذياً بباب كندة"^(١٩)، وجاء ذكره في كتابه الآخر الباهر عند حديثه عن أعمال عز الدين مسعود بن قطب الدين قائلاً: إن من أعمال عز الدين مسعود بن قطب الدين أنه فتح الباب الغربي بين باب كندة وباب العراق^(٢٠)، ويعتقد أن باب كندة هو باب البيض الحالي^(٢١)، وهناك رأي آخر وهو أن باب كندة هو غير باب البيض في الوقت الحالي بدليل النص الذي ورد في الباهر لأنه لا يوجد باب بين باب البيض وباب العراق والمسافة قليلة وهي تتجه إلى الجنوب وعليه ربما يكون باب كندة في موقع رأس الجادة الحالي أو قريب منه، ويكون بباب البيض الحالي هو الباب الغربي لأنه أقرب إلى الغرب فهو في الجنوب الغربي^(٢٢).

(٦) الباب الغربي: وهو من الأبواب التي ورد ذكرها في الباهر أيضاً بقوله: "أن من أعمال عز الدين مسعود بن قطب الدين أنه فتح الباب الغربي" وحدد موقعه بين باب كندة وباب العراق وبين أهميته قائلاً: "ولم يكن هناك باب فجاء حسناً وانتفع به أهل ذلك الصقع"^(٢٣) وذكر الhero ي (ت ١٢١٤ هـ / ٢١٤ م) أن باب المدينة الغربي هو باب الميدان^(٢٤)

(٧) باب العراق: ويؤدي إلى الجهة الجنوبية، ولم تزل المحلة المجاورة له تسمى محلة باب العراق^(٢٥).

(٨) باب القصابين: وهو من الأبواب القديمة ويؤدي إلى جنوب الموصل، فإن سوق القصابين يقع ظاهر الموصل جنوباً^(٢٦).

ثانياً: القلعة

القلعة بناء قديم تنشأ عادة لأغراض عسكرية دفاعية ، ولا نعرف بالضبط تاريخ بناء القلعة لكن هناك عدة إشارات، إذ ذكرت في العصر العقيلي، وذلك في حوادث سنة (٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م) عند الحديث عن البساسيري وقريش بن بدران العقيلي اللذين هاجما الموصل بعد أن فارقها إبراهيم ينال، فحاصرها المدينة لمدة أربعة أشهر، ولم يرحلوا عنها إلا بعد أن خاطبها صاحب إربيل فرجوا من القلعة...^(٢٧) وقد تردد ذكرها مرات عدّة خلال الحكم الاتابكي في الموصل حيث أصبحت من المؤسسات الإدارية المهمة ولها موظف خاص يسمى(دزدار القلعة) أي مستحفظ القلعة ويتمتع بصلاحيات كبيرة جداً يشرف عليها ومسؤل عن حفظ امن المدينة من أي هجوم خارجي. وقد وصفها الرحالة ابن جبير عند زيارته للموصل قائلاً: "وفي أعلى البلد قلعة عظيمة قد رص بناؤها رصاً ينتظمها سور عتيق البنية مشيد البروج وتتصل به دور السلطان وقد فصل بينهما وبين البلد شارع متسع من أعلى البلد إلى أسفله"^(٢٨). ويحيط بالقلعة في العادة سور محكم البنيان وعليه بروج يحيط به خندق يفصل القلعة عما يجاورها من الأراضي وكان لها عدة أبواب منها:

أ: باب القلعة: ويؤدي من القلعة إلى الميدان (٢٩)

بـ: بـاب السـر: ويؤدي من القـلعة إـلى النـهر ولا يفتح إـلا عند الحاجـة، وجاء ذكره عند ابن الأثير أثـنـاء حـصار صـلاح الدين الأـيوبي للمـوصل للـمرة الأولى فـقال : "أن مجـاهـدـ الدين اخـرـجـ في بعض الليـالي جـمـاعـةـ من بـابـ السـرـ الذي لـلـقلـعةـ وـمعـهـ المشـاعـلـ فـكانـ اـحـدـهـ يـخـرـجـ منـ الـبـابـ وـيـنـزـلـ إـلـىـ دـجلـةـ ماـ يـلـيـ عـينـ كـبـيرـيتـ" (٣٠).

رابعاً: الأراضي

الرِبْضُ وجُمِعُهُ أَرْبَاضٌ، وَهُوَ فِي الْاِصْطِلَاحِ أَسَاسُ الْمَدِينَةِ وَالْبَنَاءِ وَمَا حَوْلَهُ مِنَ الْخَارِجِ^(٣١)، وَوُرِدَتْ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ عَدَّةُ مَعَانٍ لِلرِبْضِ فَقَالَ ابْنُ مَنْظُورٍ بَنُ الرِبْضِ وَمَا حَوْلُ الْمَدِينَةِ أَوَّلَ الْقَضَاءِ أَوَّلَ الْمَدِينَةِ، وَأَحْيَانًا تَرْدُ بِفَتْحِ الْبَاءِ وَمِنْ هَذَا مَا حَوْلُ الْمَدِينَةِ أَوَّلَ الْفَضَاءِ حَوْلُ الْمَدِينَةِ بِالْأَبْنِيَةِ الَّتِي تَكُونُ حَوْلَ الْمَدِينَةِ وَتَحْتَ الْقَلَاعِ^(٣٢). فَكَانَ لِمَدِينَةِ الْمَوْصَلِ رَبْضَيْنِ هُمَا:

١- الْرَّبَضُ الْأَعْلَى:

ويقع شمال المدينة خارج سور ويمتد من باب سنمار إلى الأرض التي تطل على النهر وكان يضم قصور الأمراء والدولة^(٣٣)

٢- الرَّبَضُ الْأَسْفَلُ:

وهو أكبر من أرباض المدينة حيث كان فيه المساجد والمدارس والأسواق والحمامات والفنادق، ويقع خارج السور من الأرض الممتدة من ساحل نهر دجلة إلى قرب جامع النبي شيت في الوقت الحاضر^(٤)، ويسمى أيضاً بالربض الجنوبي، وقد وصفه ابن جبير بالقول: "وللموصل ربع كبير فيه المساجد والحمامات والفنادق والأسواق به مسجد جامع على شط دجلة تدور به شبابيك حديد وأمامه مارستان"^(٥)

خامساً: الميدان:

ويقع الميدان أمام دور المملكة ويمتد إلى باب سنجار ومحصور بين سور العقيلي والسور الذي بناه عماد الدين زنكي من القلعة إلى باب سنجار، وكان أرضاً مكتشوفة فيها من العمارة إلا الكشك يكون فيه الحاكم عند تدريب الجيش^(٦)

سادساً: دار الإمارة:

جرت العادة لدى العرب المسلمين بعد فتح آية مدينة أن يبدأوا أولاً بتأسيس المسجد الجامع ثم بناء دار الإمارة إلى جواره، وهي من الأمور الأساسية التي يراعونها في تحطيط معظم المدن التي ينشئها فمن ذلك دار الإمارة الذي يكون ملاصقاً للمسجد الجامع. خلال العصر الراشدي قام وإليها عتبة بن فرقان السلمي سنة (٦٣٨-١١٧ هـ) ببناء دار الإمارة وبنى إلى جانبه من الجنوب المسجد الجامع الذي عرف فيما بعد بالجامع الأموي^(٧)، وقد أعاد الأمويون بناء هذه الدار القديمة وتوسيعها لاسيمماً فعهد وإليها مروان بن محمد واتخذ بينها وبين الجامع باباً يؤدي إلى ممر طويل يصل بين الدار والجامع^(٨). ووردت لدى ابن الأثير العديد من الإشارات عن دار الإمارة الذي في الموصل في مختلف مراحلها التاريخية ما عدا في العصرين الراشدي والأموي. فهناك إشارة إلى ذلك خلال العصر العباسى وبالتحديد سنة (١٣٢-٧٤٩ هـ) عندما قلد أبو العباس السفاح أخيه يحيى بن محمد ولاية الموصل في سنة (١٣٢ هـ / ٧٤٩ م) فقال ما نصه: " واستعمل عليهم أخاه محمد وسيره إليها في اثنى عشر ألف رجل فنزل قصر الإمارة بجانب المسجد الجامع"^(٩)، ويبين هذا النص أن دار الإمارة كان موجوداً أيضاً خلال العصر الأموي، ما عدا أن التسمية اختلفت من دار إلى إمارة إلى قصر الإمارة ولربما أجريت عليه تغييرات خلال العصر الأموي بحيث تم توسيعه وأطلق عليه قصر الإمارة^(١٠) وأما خلال الحكم الحمداني للموصل فإن دار الإمارة أيضاً كان موجوداً، حيث ورد لدى ابن الأثير في حوادث سنة (٩٣٧-٥٩٨ هـ) ما نصه: " وثار أهل الموصل والأتراء فنهبواهم وخرجوا إلى بني حمدان وخرج الديلم إلى قتالهم فهزمهم الموصلة وبنو حمدان وقتل منهم خلق كثير واعتصم الباقيون

دار الإمارة^(٤١)، وفي إنشاء حكم العقيليون للموصل وردت إشارة إلى دار الإمارة أبضاً، ففي سنة ٤٢ هـ / ١٠٥٠ م عندما قبض زعيم الدولة أبو كامل بركة بن المقلد (٤٣-٤٤ هـ / ١٠٥١-١٠٥٢ م) على أخيه قريش بن بدران^(٤٥)، شرط عليه أن يسكن دار الإمارة في الموصل^(٤٦). وكذا الحال بالنسبة إلى العصر السلجوقى، فبعد أن سيطرة قج أرسلان على الموصل سار عنها إلى جاوي سقاوو ليحاربه وجعل ابنه ملکشاه في دار الإمارة^(٤٧). أما في العصر الاتابكي فإن دار الإمارة أصبحت تسمى دور المملكة^(٤٨) أو دور السلطنة^(٤٩)، وتقع على دجلة، حيث تجاور القلعة وتقابل الميدان، ولم تزل بقايها تعرف بـ(قره سراي)^(٥٠)، فكانت دور المملكة من الدور الكبيرة التي تصاهي دور الخلفاء والسلطانين^(٥١).

سابعاً: الجواامع:

من دون شك أن الموصل عندما تأسست كان المسجد الجامع هو الخطة الأولى التي أسست أولاً من قبل المسلمين كما هو الحال مع باقي المدن التي أسسها العرب المسلمين، فكان من أهمها:

أ: الجامع الأموي (الجامع العتيق):

وهو أقدم جامع في مدينة الموصل، تم تشييده بعد الفتح الإسلامي للمدينة، وكان يسمى في البداية بالمسجد الجامع، حيث كان من عادة العرب الفاتحين بعد تحرير أو فتح أي مدينة أن يقوموا ببناء المسجد الجامع وبجانبه دار الإمارة. ويرجع تاريخ بناء المسجد الجامع إلى العصر الراشدي، حيث ذكر البلاذري أن الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) عزل عتبة بن فرقان السمي وعين بدله هرشمة بن عرفة الباري فاختط الموصل واسكنها العرب ثم مصرها وبنى المسجد الجامع^(٥٢). وشهد هذا المسجد العديد من عمليات التوسيع والبناء خلال العصر الأموي عندما كان مروان بن محمد واليا على الموصل سنة ١٢٦ هـ / ٧٤٣ م^(٥٣)، وكذلك في العصر العباسي حيث ذكر ابن الأثير نفلا عن الإزدي أنه في زمن الخليفة العباسي المهدي تم توسيعه وبالتحديد عندما كان موسى بن مصعب واليا على الموصل سنة ١٦٧ هـ / ٧٨٤ م^(٥٤) فهدمت الأسواق المحيطة به وأضيفت إلى المسجد الجامع^(٥٥). وذكر ابن الأثير انه شاهد في عصره لوبا كتب عليه تاريخ توسيع هذا المسجد قائلاً: "ورأيت لوبا فيه ذكر ذلك وهو تاريخ توسيع هذا المسجد في حائط الجامع سنة ثلاثة وستمائة وهو باق"^(٥٦)، ولم نعرف شيئاً عن حالة الجامع في العصرين الحمداني والعقبلي، إلا انه وردت إشارة لدى ابن الأثير يصف الجامع خلال العصر السلجوقى قائلاً: "فكان الجامع العتيق بلا عمارة البتة"^(٥٧).

بـ: الجامع النوري:

وتذكره المصادر التاريخية باسم الجامع النوري الكبير تمييزاً له عن الجامع العتيق (الأموي) وسمى بالجامع النوري نسبة إلى مؤسسه نور الدين محمود بن زنكي^(٥٣)، وقد حدد نور الدين موضع الجامع عند زيارته ذكر ابن الأثير ما نصه: "ولما ملك الموصل خلعتها على سيف الدين ابن أخيه، وأمره وهو بالموصى بعمارة الجامع النوري، وركب هو بنفسه إلى موضعه فرأه، وصعد منارة مسجد أبي حاضر فأشرف منها على موضع الجامع، فأمر أن يضاف إلى الأرض التي شاهدها ما يجاورها من الدور والحوانيت، وأن لا يؤخذ منها شيء بغير اختيار أصحابه. وولى الشيخ عمر الملا عمارته، وكان من الصالحين الآخيار، فاشترى الأماكن من أصحابها بأوفر الأثمان، وعمره، فخرج عليه أموال كثيرة، وفرغ من عماراته سنة ثمان وستين وخمسينه^(٥٤)، فباشر ببنائه سنة (٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م)، وذلك بعد أن اشتري الأرض من أصحابها وأضاف إليها وما يجاورها من الدور والأراضي، فعمره وبذل أموالاً كثيرة، وفرغ من بنائه سنة (٥٦٨ هـ / ١١٧٢ م)^(٥٥) وهذا الجامع لا يزال موجوداً في الوقت الحاضر، ويعد من الجوامع المشهورة في العراق وآثاره باقية وبخاصة منارته المنحنيّة والتي تسمى الحدباء حيث يبلغ ارتفاعها ستين متراً، وموقعه الحالي في محلّة تسمى باسمه الجامع الكبير^(٥٦).

تـ: الجامع المجاهدي:

سمى هذا الجامع باسم مؤسسه مجاهد الدين قايماز ، والذي كان يشغل منصب إدارة قلعة الموصل من قبل سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي سنة (٥٧١ هـ / ١١٧٥ م)، وجاء ذكر هذا الجامع عند حديث ابن الأثير عن قرب الانتهاء من بناء هذا الجامع فقال: "وفيها قارب الجامع الذي بناه مجاهد الدين قايماز بظاهر الموصل من جهة باب الجسر الفراغ وأقيمت فيه الصلوات الخمس وال الجمعة وهو من أحسن الجوامع^(٥٧)، وعند زيارته ابن جبير الموصلى وصف هذا الجامع بالقول: "واحدث فيه بعض أمراء البلدة يعرف بمجاهد الدين جاماً على شط دجلة ما أرى وضع جامع أحفل فيه بناء يقصر الوصف عنه، وعن ترتيبه وكل ذلك نقش في الأجر. وأما مقصوراته فتذكر بمقاصير الجنة، ويطيف به شببليك حديد تتصل بها مصاطب تشرف على دجلة لا مقعد اشرف منها ولا أحسن^(٥٨)، وأما في الوقت الحاضر فاته يسمى بجامع الخضر أو الجامع الأحمر وهو أصغر مما عليه في العهد الاتابكي^(٥٩).

المدارس:

إذ يمكن القول أن الموصل قد شهدت منذ نهاية القرن (السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد) وببداية (القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد) ازدهاراً في الحركة العلمية، حيث أن حكام الدولة الاتابكية أنشئت العديد من المؤسسات التعليمية، وقربوا العلماء والأدباء، وأجزلوا لهم العطاء حتى أصبحت الموصل حسب وصف ضياء الدين بن الأثير "علماء في رأسه نار"^(٦٠)، ولم ينته العصر الاتابكي إلا وقد انتشرت المدارس انتشاراً واسعاً، وبهذا قال الرحالة الأندلسى ابن جبير (ت ٤٦١ هـ / ١٢١٧ م) الذي زار الموصل في سنة (١١٨٤ هـ / ٥٨٠ م) واصفاً المدارس التي كانت موجودة في ذلك العهد بالقول: "وفي المدينة مدارس للعلم نحو ست أو أزيد على دجلة فتلوح كأنها القصور المشرفة"^(٦١)، ومن ابرز تلك المدارس: المدرسة النظامية، وهي أقدم مدرسة أنشئت في الموصل في العصر السلاجوقى أسسها الوزير السلاجوقى نظام الملك (ت ٤٨٥ هـ / ١١٨٩ م)^(٦٢)، وهناك العديد من المدارس التي ورد ذكرها لدى ابن الأثير في العصر الاتابكي وهي:

أ: المدرسة الاتابكية (العتيقية):-

وهي المدرسة التي تسب إلى مؤسسها سيف الدين غازي ابن عماد الدين (٥٤١-٤٤ هـ / ١١٤٦-١٤٩ م)^(٦٣)، وهي من أحسن المدارس وأوسعها وقد جعلها وفقاً على الفقهاء من الشافعية والحنفية^(٦٤)، ودرس بها أحسن الفقهاء ووردها العديد من العلماء ليدرسوا فيها.

ب: المدرسة العزيية:

ومؤسسها عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود (١١٨٠-٥٧٦ هـ / ١٩٣-١٩٩ م)^(٦٥)، وقد وصفها ابن الأثير في الباهر بقوله: "وهو الذي ابتنى المدرسة الغربية [العزيزية] بباب دار المملكة، وهي مدرسة حسنة، جعلها للفريقين الحنفية والشافعية، وقرر للفقهاء ما ليس بمدرسة أخرى من الفواكه والحلوا، والدعوات في المواسم والأعياد، والشيرج للوقود والفحم وغير ذلك، وقرر وفقها كل أسبوع وفي الأيام الشريفة والليالي المباركة شيئاً كثيراً"^(٦٦)، وانشأ عز الدين مسعود تربة فيها دفن فيها بعد وفاته^(٦٧)، وقد شاهد المؤرخ ابن خلكان (ت ٥٦٨٢ هـ / ١٢٨٢ م): هذه المدرسة فووصفها قائلاً: "ورأيت هذه المدرسة والتربة وهي من احسن المدارس والتربي..."^(٦٨)

ت. المدرسة المجاهدية:

وتنسب إلى مؤسسها مجاهد الدين قايماز^(٦٩)، وقد ورد اسم هذه المدرسة في حوادث سنة ١٩٩٥هـ / ١٩٩٨م، عند حديثه عن سيرة مجاهد الدين قايماز قائلاً: "انه بنى الرابط والمدارس والخانات في الطرق.."^(٧٠)، وهذا ما أكدته المؤرخ ابن الساعي (ت ١٤٧٥ هـ / م ١٢٧٤) بالقول: "وبنى جامعاً بظاهر الموصل وبنى إلى جنبه مدرسة للشافعية ورباطاً للصوفية ومرستانأً للمرضى إلى غير ذلك..."^(٧١).

الخاتمة:

يمكن القول أن كتاب **الكامل** لابن الأثير يعد مصدرًا مهمًا لدراسة خطط الموصل خلال حكم الدولة الاتابكية للموصل، إذ يكتسب أهمية كبيرة لكون ابن الأثير كان معاصرًا لحكم هذه الدولة، وهو شاهد عيان عن تلك الخطط التي قد لا نجدها في مصدر آخر، لاسيما عند حديثه عن أبواب المدينة، وسورها، وكذلك الجواجم التي أنشئت في تلك المدة، وعلى الرغم من أن كتابه كان يؤرخ للأحداث السياسية، لكنه لا يمكن الاستغناء عنه عند الحديث عن خطط مدينة الموصل، وهناك كتابه الآخر وهو الباهير يكاد يكمل ما جاء به من معلومات خاصة بهذه الخطط، وقد كانت معلوماته مقتضبة، لكنها تشكل أهمية كبيرة في التطور العمراني لمدينة الموصل، وبخاصة تلك التي تحدث بها عن سور المدينة في العصر العقيلي والatabكي، فضلاً عن أن هناك نص غایة في الأهمية انفرد به ابن الأثير عن باقي المؤرخين وهو إعطاء صورة لحالة الموصل العمرانية قبل مجئ الاتابكة، وكانت مصادر معلوماته عن هذه الخطط تقتصر على مشاهدته، ومن ثم الروايات الشفوية التي نقلها عن والده.

الهوامش:

١. التاريخ الباهير في الدولة الاتابكية، تحقيق: عبد القادر احمد طليمات، (القاهرة، دار الكتب الحديقة، ١٩٦٣)، ص ٧٧.
٢. أبو زكريا يزيد بن محمد الأزدي: تاريخ الموصل، تحقيق: علي حبيبة، (القاهرة، ١٩٦٧)، ج ٢، ص ٢٨؛ عز الدين أبي الحسن على بن أبي المكارم بن الأثير: الكامل في التاريخ، (بيروت، دار الفكر، ١٩٨٧)، ج ٤، ص ١٩٦.
٣. المصدر نفسه، ج ٤، ص ٥٤٢.
٤. تاريخ الموصل، ج ٢، ص ٤٣.
٥. قدامة ابن جعفر: الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق: محمد حسن الزبيدي (بغداد، دار الحرية، ١٩٨١)، ص ٣٢٨.

٦. الأزدي: تاريخ الموصل، ج ٢٥، ص ٢٥.
٧. المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٨٠؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٥، ص ٩٦.
٨. الأزدي: تاريخ الموصل، ج ٢، ص ٢٨٦.
٩. الباهر، ص ٧٨.
١٠. المصدر نفسه والصفحة.
١١. المصدر نفسه والصفحة.
١٢. المصدر نفسه والصفحة؛ الكامل، ج ٨، ص ٢٢٩.
١٣. المصدر نفسه، ص ٧٨.
١٤. المصدر نفسه، ص ٧٨، ص ٧٩.
١٥. الكامل، ج ٩، ص ١٤٩.
١٦. سعيد الديوه جي: تاريخ الموصل، (بغداد، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٢) ج ١، ص ٣٣٢.
١٧. هذا رأي الأستاذين الفاضلين يوسف ذنون والمرحوم عبد الكريم الصايغ.
١٨. الديوه جي: بحث في تراث الموصل، ص ٢٥-٢٦.
١٩. الكامل، ج ٧، ص ٣٢٤.
٢٠. سعيد الديوه جي: بحث في تراث الموصل، ص ٢٤.
٢١. احمد الصوفي: خطط الموصل، (الموصل، مطبعة أم الربيعين، ١٩٥٣)، ج ١، ص ١٦.
٢٢. المرجع نفسه والجزء والصفحة.
٢٣. الباهر، ص ٧٨؛ الكامل، ج ٩، ص ١٥٨.
٢٤. أبو الحسن علي بن أبي بكر الھروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، تحقيق: جانين سورديل، دمشق، (١٩٥٣)، ص ٧١.
٢٥. سعيد الديوه جي: تاريخ الموصل، ص ١٤٩.
٢٦. المرجع نفسه، ص ٣٠-٢٩.
٢٧. ابن الأثير: الكامل، ج ٨، ص ٨٢.
٢٨. أبو الحسين محمد بن احمد بن جبير: رحلة ابن جبير، (القاهرة ، لبنان ، دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب المصري ، د.ت.)، ص ٢٢١.
٢٩. الديوه جي: بحث في تراث الموصل، ص ٨٩.

٣٠. الكامل، ج ٩، ص ١٥٨.
٣١. شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي: معجم البلدان، (بيروت، دار صادر، د.ت)، مج ١، ص ١٠٧.
٣٢. مج ١، ص ١٠٧.
٣٣. رشيد الجميلي: دولة الاتابكة في الموصل بعد عماد الدين زنكي ٥٤١-٥٦٣ هـ، (ط ٢، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٧٥)، ص ٣١٤.
٣٤. المرجع نفسه والصفحة.
٣٥. ابن جبير: الرحلة، ص ١٦٨.
٣٦. الديوه جي: بحث في تاريخ الموصل، ص ١٣٢-١٣٣.
٣٧. احمد بن يحيى البلاذري: فتوح البلدان، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٧)، ص ٣٢٧؛ ابن الأثير: اسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق: محمد إبراهيم و محمد احمد احمد عاشور، (القاهرة، مطبعة الشعب، د.ت)، ج ٤، ص ٥٦٨.
٣٨. الديوه جي : بحث في تراث الموصل، ص ١١٧.
٣٩. الكامل، ج ٤، ص ٣٤.
٤٠. المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٤.
٤١. المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٤٠.
٤٢. المصدر نفسه، ج ٨، ص ٥٥.
٤٣. المصدر نفسه، ج ٨، ص ٤٢١.
٤٤. المصدر نفسه، ج ٩، ص ٢٢٨.
٤٥. المصدر نفسه، ج ٩، ص ١٣.
٤٦. سعيد الديوه جي: تاريخ الموصل، ص ٣٢٩، ٣٢٨.
٤٧. المرجع نفسه، ص ٣٢٩.
٤٨. فتوح البلدان، ص ٣٢٧؛ قدامة بن جعفر: الخراج، ص ١٧٥.
٤٩. ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج ٥، ص ٢٢٣.
٥٠. الأزدي: تاريخ الموصل، ج ٢، ص ٢٤٨؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٥، ص ٦٩.
٥١. الكامل، ج ٥، ص ٦٩.
٥٢. الباهر، ص ٧٧.
٥٣. ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١١٠.

٤٤. المصدر نفسه والجزء والصفحة.
٤٥. المصدر نفسه والجزء والصفحة.
٤٦. الصاين: تاريخ الموصل، ج٣، ص١٥٤.
٤٧. الكامل، ج٩، ص١٤٩.
٤٨. الرحلة، ص١٦٨.
٤٩. سيفي: مجموعة الكتابات المحررة في أبنية الموصل ، تحقيق: سعيد الديوه جي، (بغداد، مطبعة شفيق، ١٩٥٦)، ص٥١-٥٦؛ سعيد الديوه جي: جوامع الموصل في مختلف العصور، (بغداد، مطبعة شفيق، ١٩٦٣)، ص٥٦-٥٩.
٥٠. عبد الجبار حامد احمد: الحياة العلمية في عصر الاتابكة (١٢٦٢-١١٢٧هـ/١٢٦٠-٥٢١م)، (رسالة ماجستير قدمت إلى كلية الآداب / جامعة الموصل، غير منشورة ، ١٩٨٦م)، ص٥٧-٥٨.
٥١. ابن جبیر: الرحلة، ص١٦٨ .
٥٢. الجميلي: دولة الاتابكة ، ص ٣١٤ .
٥٣. الديوه جي: تاريخ الموصل، ج١ ، ص ٣٤٤ .
٥٤. ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص٢٣.
٥٥. المصدر نفسه، ج٩، ص٢٢٨ .
٥٦. الباهر، ص١٨٩ .
٥٧. ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص٢٢٨ .
٥٨. وفيات الأعيان، ج٢، ص٩٥ .
٥٩. مجاهد الدين قايماز : وهو أبو منصور قايماز بن عبد الله الزيني ، الملقب بمجاهد الدين الخادم ، كان عتيق زين الدين والد مظفر الدين كوكبوري صاحب إربل ، حيث قوض إليه زين الدين أمرور إربل في سنة (٥٥٧١هـ/١١٦٣م) ، وانتقل إلى الموصل في سنة (٥٥٧٥هـ/١١٧٥م) ، حيث تولى إدارة قلعتها في عهد سيف الدين غازي ، وعند وفاة الأخير تولى أخيه عز الدين مسعود الأول (٥٧٦هـ/١١٨٠م) حكم الموصل، فدبر رجال دولته مؤامرة على مجاهد الدين ، فقبض عليه سنة (٥٨٩هـ/١١٩٣م) ، ثم ظهرت الحقيقة فأعاده عز الدين إلى ما كان عليه واستمر في منصب دزدار القلعة (أي حافظ القلعة) ، إلى حين وفاته سنة (٥٩٥هـ/١١٩٨م) ، وكان له عدة أعمال عمرانية في الموصل منها بناء جامع كبير ومدرسة ورباط وبيمارستان. ابن الأثير : الباهر ، ص ١٧٧ ، ١٩٣ .
٦٠. الكامل: ج٩، ص٢٤٨ .
٦١. علي بن انجب بن عثمان المعروف بابن الساعي: الجامع المختصر في عنوان التواريخ والسير، (بغداد، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٣٤)، ص٩٥ .